محاضرات علم اللغة 10

اللسانيات التوليدية في الدراسات العربية

الأستاذ الدكتور حسين عودة هاشم النور

. تبنّي الأستاذ عبد القادر الفاسي الفهري للنّظرية التّوليدية التّحويلية:

يمثّل الأستاذ "الفهري" النّظرية التّوليدية في العالم العربي، النّظرية التي أسّس لها الأمريكي "تشومسكي" منذ مؤلّفه حول "البنى التّركيبية" 1957م، وقد مثّلها بجدارة بالرّغم ما تحتويه من تعقيد في المنهج، وقام بإسقاط قواعدها على النّحو العربي، بَدْءًا بالنّموذج المعيار 1965م، فالمعيار الموسّع 1978م، فنظرية الرَّبْط العالمي...، وهو ما تترجمه مؤلّفاته: اللّسانيات واللّغة في جزأين، المعجم العربي، البناء الموازي، لسانيات الظّواهر وباب التّعليق.

يرى "الفاسي الفهري" "أنّ اللّسانيَّ لا يقول كلامًا معادًا ومكرّرًا، ومنه فلا فائدة من إعادة إنتاج ما قاله القدماء اللّغويين لوصف ظواهر وقضايا اللّغة العربية، على اعتبار أنّ الظّروف التّاريخية تغيّرت، فاللّغة العربية التي وصفها "سيبويه"، ليست هي اللّغة العربية التي وصفها "تمّام حسان" أو "الفاسي الفهري" أو "أحمد المتوكّل"".

يعتبر "الفاسي الفهري" أنّ اللّغة العربية قد تطوّرت بمرور الوقت مع تطوّر الإنسان الذي عليه أيضا أن يطوّر مناهجه في وصفها وتحليلها.

قام "الفهري" بدراسةٍ كانت من أهمّ الدّراسات التي عالجت اللّغة تحت عنوان "اللّسانيات واللّغة العربية" والتي استند فيها على نموذج الباحثة برزنان (1978م) وقد ارتكزت هذه الرّؤية فيما يلي:

1. اللّغة العربية لغة طبيعية خضعت لبنية التّطوّر والتّغيير كسائر اللّغات الأخرى.
2. النّحو العربي القديم غير صالح لوصف اللّغة العربية في وضعها الرّاهن.
3. نسبية الوصف النّحوي القديم، وعدم استيفائه لجميع صور الكلام المسموع.
4. التّشابه البنوي بين العربية وسائر لغات العالم باعتبارها لغة طبيعية.
5. نقد المنهج الوصفي لعدم كفايته التّفسيرية.
6. نقد الوصفية العربية لجزئية نظرتها، وعدم تقديمها للبدائل اللّسانية المعوّضة لرفض العلّة والتّقدير والعامل النّحوي.
7. ضرورة تأسيس لسانيات ظواهر للعربية يخضع الاستدلال فيها إلى التّجربة.
8. وجوب أن تكون القواعد التّركيبية إسقاطا للمعجم.

وينجم عن هذه المبادئ مستويين:

أ. المستوى الإجرائي:

سعى "الفهري" إلى إبراز العلاقات (الرّوابط) بين البنية المحمولية (العلاقات الدّلالية) التي تربط الموضوع بمحموله، والبنية المكّونية الظّاهرة على السّطح، وتقوم وظائف مثل: الفاعل والمفعول غير المباشر والمالك والفضلة، والملحق بدور التّنسيق بين البنيتين، إنّ هذه الوظائف تسندُ إلى المكوّنات بوساطة نوعين من القواعد هما: القواعد التّركيبية والمعجمية واللّتين تتحكّمان في البنية الوظيفية التي تشكّل مدخلًا للمكوّن الدّلالي، الذي يعطيها صورتها المنطقية بينما يقوم المكوّن الصّوتي بإعطائها التّمثيل المنطوق أو صورتها الصّوتية النّهائية.

ب. المستوى التّركيبيّ:

في هذا المستوى قام الأستاذ "الفهري" بتحديد الرّتبة التي تتميّز في وضعها في البنية العميقة عن وضعها في البنية السّطحية بناءً على نوع القواعد التّحويلية في اللّغات، فنحنُ —مثلا– نعدُّ: عيسى في ضرب عيسى موسى فاعلا بالضّرورة جَرْيًا وراءَ القاعدة النّمطية الأصلية التي تقدّم الفاعل على المفعول وجوبًا في حالة تعذّر ظهور الحركة لتوخّي اللُّبس، فإذا أدرجت قاعدة تحويلية تنقل الفاعل إلى مواضع الابتداء، وهنا وجوبُ تطبيق قاعدة التّطابق في الجملة المشتقّة من مثل:

الأولاد جاؤوا (تحويل بإلحاق الواو المطابقة)، ممّا يعطي الانطباع بأنّ الفعل هو رأس الجملة العربية.

إنّ مسألة الإقرار بأوّلية عنصر نحوي ما في سلمية ترتيبه النّحوي ليست بأمر هيّن، لأنّ النحاة قديمًا وحديثًا قد أجهدوا أنفسهم في مسألة الأصل في الرّتبة، ولا يبدوا أنّ هناك رأيًا فاصلًا يمكنُ التّوقّف عنده بالقبول.

إضافة إلى كلّ هذا فإنّ ظاهر التّركيب الوظيفي للّغة لا يستجيب دومًا لمنطق التّقدير، ففي السّياق —مثلًا– قد يكون من المستحيل أن نقدّم رابطًا بين المبتدأ وخبره المفرد الذي لا يكون فعلًا مثل: الولد مجتهدٌ، وغيرها فقد قدّر "الفهري" الرّابط (كان) مُزَوَّدًا بدلالة الزّمن والجهة:

كان الولدُ مجتهدًا (NP+NP+SV)

لقد كان قصد "الفهري" من هذا التّقدير —فيما يبدو– الافتراض التّرابطي ردّ الجملتين الإسمية والفعلية إلى بنية عميقة واحدة فقط، بالرّغم من اختلافهما الشّكلي في البنية السّطحية.

. **قضيّة التّبئير:**

التّبئير يرتبط بموضوع الرّتبة عند "الفهريّ" "ويقصد به نقل المركّب النّحوي باعتباره مقولة كبرى إلى مكان خارجي غير مكانه الدّاخلي هو البؤرة، مع جمع المركّب لموقعين معًا داخل الاستعمال وخارجه دُون وجود أثر ضميري في الموقع السّالف، كما يفترضُ "الفاسي الفهري" في سياق استثماره لنظريّة الرّبط الإحالي وجود نوعين من المركّبات في البنية المكوّنة، المركّبات الإسمية (م إ س) والعناصر الوظيفية مثل: الضّمير المستتر والعناصر الفارغة، فالضّمير المستتر –مثلًا– باعتباره غير موجود صوتيّا في البنية المكّونيّة تكمنُ مُراقَبَتُهُ بالنّظر إلى علاقة الفاعل بأفعالٍ معيّنة، وكذا علاقة المفعول به بأخرى، أو بقيد العلوّ الوظيفي أو السّبق أو الإحالة المنفصلة".

يقصد "الفاسي الفهري" بقيد العلوّ الوظيفي أن يعلو المفسّر الضّمير.

مثل: دخل مكتبه زَيْدٌ، زَيْدٌ هُنَا فاعل والضّمير (ه) ملتحقٌ بالمفعول وأمّا قيدُ الإحالة المنفصلة فيقتضي انفصال الضّمير إحاليّا عن الاسم الموجود معه في النّواة، دخل مَكْتَبَ زَيْدٍ.

نظرة عبد القادر الفاسي الفهري للتّحليل:

يقول "الفهري": "النّظرية اللّسانية –كسائر النّظريات– هي بناءٌ عقليٌّ يَتُوقُ إلى رَبْطِ أكبر عدد ممكن من الظّواهر اللّغوية الملاحظة بقوانين خاصّة، تكون مجموعة متّسقة يحكمها مَبْدَأٌ عَامٌّ هو مَبْدَأُ التّفسير، ويمكن تمثّلها كمجموعة من المفاهيم الأساسية، ومجموعة من المسلّمات تستنتج منها النّتائج التّفسيرية للنّظرية".

نلاحظ من خلال قوله أنّه متأثّر بالمنهج التّوليدي الذي يرتكز على النّتائج التّفسيرية في نظريّته.

لقد انتقد "الفاسي الفهري" الوصفيين أمثال "تمّام حسّان" الذين رفضوا العلّة، ونظرية العامل، والإعراب التّقديريّ... بدعوى أنّ هذه الأشياء... ليست من العلم، وأنّ العلم يجب أن يكتفي بالملاحظة الخارجية، والتّساؤل عن كيف، ولا يتعدّى ذلك على التّساؤل عن علّة وجود الظّاهرة، ويعتبر أنّ النّظرية العلمية يجبُ أن ترقى إلى مستوى تفسيري، ولا يكتفي بالملاحظة الخارجية في جميع الأحوال بل تبحثُ في الكيف وما وراء الكيف.

والتّفسير عنده "مفهوم شامل يفسّر النّظام اللّغوي من حيث المفاهيم النّحوية كالإحالة الإعرابية، التّطابق، التّقدير، الحذف والزّمن، ومن حيث اللّوازم المعجمية كالمعنى، التّعدّدية، اللّزوم وصيغة الفعل.'

ونموذج التّفسير عنده لا يعني بالضّرورة توظيف التّراث النّحوي في إعادة وصف اللّغة العربية "فلا ضرورة منهجيّة ولا منطقيّة تفرض الرّجوع إلى الفكر الماضي وتصنيفاته ومفاهيمه لمعالجة مادّة معيّنة".

ومن خلال تفكيره التّوليدي، طبّق نظرية الفكر الإحالي (Binding throry) في دراسة التّقديم والتّأخير في اللّغة العربية مَثَلًا:

جملة: "اللهَ أَدْعُو" تسمّى هذه الظّاهرة في التّراث النّحوي بالتّقديم والتّأخير لكن "الفهري" يسمّيها ب: "التّبئير*".

ويستعمل بدل مصطلح العامل مصطلح "المراقب"، "فنظريّة العامل هي نظريّة تجاهلتها النّزعة البنيوية الغربية ونبذها العرب المحْدثون لتأثّرهم بهذا المذهب لاسيما أولئك الذين ينادون بترك التّقدير في النّحو والتّمسّك بظاهر اللّفظ ومن ثمّ بالوصف لنظام اللّغة وترك التّعليل".

من خلال قوله تَظْهَرُ القراءة الجديدة للنّحو العربي القديم ومحاولة تبنّي النّظرية الغربية لوصف اللّغة العربية.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته